عندما يجوع القلب

٢٥/٩/١٤٣٦هـ

إذا ذُكـر الجوعُ فلا يكاد ينصرف الذهـنُ إلا للجوع المعروف، لكنْ ثمة نوعٌ مِن الجوع أشـارت له النصوصُ النبويـة، والآثارُ المنقولة عن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، تكشـف مظهرًا من مظاهر عنايتهم بسدّ هذا النوع من الجوع، الذي ابتُلي به أكثرُ الخلق، لكنهم لا يشعرون به! لفقدِ الداعي لهذا الشعور أو ضعفه؛ وهو: حياة القلب، واستنارته بنور الوحي.

كمّ مرّ على مسامعنا هذا الدعاءُ النبوي العظيم: «**اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشـع، ومن نفس لا تشـبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها**»[1]، فتأمل: «**ومن نفس لا تشبع**»، إنه حديثٌ عن القلب إذا جاع، وتطلعت نفسُـه لحطام الدنيـا؛ فيجمع، ويجمع حتى لا يُوقِف جمعَه هذا إلا اصطدامُه بجدار الموت!

ويلفتُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النظرَ إلى هذه الحقيقة بأسـلوبٍ آخر، حين أوصى تاجـرًا من تجّار المسـلمين -وهو حكيم بن حـزام- فيقول له:

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٢٢).

«**يا حكيم، إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشـــبع، اليد العليا خير من اليد الســـفلى**»[1]، إنه تحذيـــرٌ غير مباشر من الوصول إلى تلك الحال التي تعوّذ منها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الســـابق، ألا وهي: ظهور أعراضِ هذا الجوع القلبي بالاستشراف والتطلُّع للمال، فهو جوعٌ دائمٌ: «يأكل، ولا يشبع»!

ومن تأمل هذه الحال؛ عرف ورأى أعـــراضَ هذا الجوع على أحوالِ كثيرٍ من الناس الذين أقْفرت قلوبُهم من كنز (القناعة)، وتعطَّلت عندهم حاسةُ ذوقِ لذة (الكفاف)، فتلاشت، أو أوشكت أن تتلاشى من حياتهم جماليةُ صورة (الفلاح)، تلك الثلاثُ التي جمعها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه**»[2].

وثمة جوعٌ لا يُشـــبهه جوعٌ، ألا وهو: جـــوعُ القلب من لذة القرآن، وتدبُّر آياته، والعيش معه، والأنس بمناجاة الله بكلامه، والتلذّذ بخطابه جَلَّ جَلَالُهُ، وإلى هذا المعنى يُشـــير الخليفةُ الراشد أميرُ المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولـــه: «لو صحّت قلوبُكم ما شـــبعتم مـــن كلام الله»![3] فلنتأمل هذه الكلمة، ثم لنفتِّش عن مساحة الجوعِ التي تحتل قلوبَنا! ولنفكر في السبب الذي لأجله لا يستطيع الواحدُ منّا أن يُمسك المصحفَ سويعةً من زمن، أو يبقى معه وقتًا يليق به! أو يشـــعر بالمجاهـــدة العظيمة -وكأنه يحمل أثقالًا- إذا ابتدأ بتلاوته! إنه مـــرضٌ أصابَ القلبَ، واعتلّ معه اعتلالًا

(١) رواه البخاري (رقم١٤٧٢)، ومسلم (رقم١٠٣٥).

(٢) رواه مسلم (رقم١٠٥٤).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (رقم٦٨٠)، وفي سنده انقطاع.

جعله يَشعر بالشـــبع من أول وجهٍ يقرؤه، ولا يشعر بالجوع والألم عندما يفوته حزبُه منه!

وفي الجملة، فإن جوع القلوب حالٌ تَعرِض لكل أحد، لكن الشـــأن بالشعور بهذا الجوع والألم، الذي يدفع لسدِّ جوعتِه، كما يحرص الإنسانُ على سدِّ جوعة البدن.

ومتى ما شـــعرنا بالجوع؛ فتلك بدايةُ التصحيح، فمَن جاع بحث عما يســـدُّ جوعتَه، ومَن لم يشـــعر فليبحث عن قلبه، وليتذكر أن القلبَ فيه شـــعثٌ «لا يلمّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنسُ به في خلوته، وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته وصِدْق معاملته، وفيه قلقٌ لا يُسكّنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه، وفيه فاقةٌ لا يَسدُّها إلا محبتُه، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذِكره، وصدقُ الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقةُ منه أبدًا»[1].

❋

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).